

بعض معالم عهد شارلمان

بعد سقوط روما في يد المتبررين سنة ٤٧٦م، أصبح أباطرة القسطنطينية يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للأباطرة الرومان في الغرب، فاعتبروا شبه جزيرة إيطاليا من أملاكهم، ورابطت جنودهم في البندقية واستريا ونابولي وصقلية وكالابريا ورافنا، وكان للامبراطور البيزنطي نائب (أرخون) في رافنا وممثل في روما ذاتها.

على أن سيادة بيزنطة في هذه الجهات تعرضت للنزاع من قبل قوى وسلطات أخرى، منها اللومبارديون، وهم آخر موجه من الموجات الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية الرومانية، وقد استغلوا ماحل بالقوط الشرقيين في إيطاليا من كارثة خطيرة، وما أصاب البلاد من الخراب، نتيجة حروب جستنيان، فتوغلوا بقيادة ملكهم البوين في إيطاليا، ولم يلبثوا أن استقروا بها سنة ٥٦٨ وامتد ملكهم إلى جنوبها. واعتنق هؤلاء اللومبارديون المسيحية على المذهب الأريوسي شأنهم في ذلك شأن معظم المتبررين، واشتهروا بمقدّمهم على الكنيسة الرومانية، وكرهية الخضوع لسلطانها، فضلا عن نزعتهم العلمانية وشدة تماسكهم وتجانسهم في أصولهم ومصالحهم.

أما القوة الثانية فتتمثل في الرومان بجنوب إيطاليا (كالابريا)، الذين حرصوا على أن يحافظوا على استقلالهم، بما أنشبهه من نضال ضد اللومبارديين، وبماتلقوه من مساعدة من قبل الدولة البيزنطية على حين أن البابوات الذين صار إليهم حكومة دوقية روما، أسهموا في التعلق بطيف السلطة الإمبراطورية، فأرخوا وثائقهم بسنوات حكم الامبراطور البيزنطي، واعتبروا نائب الامبراطور في رافنا وليا لهم ونصيرا، وبلغ من شدة تعلقهم به، أنهم ظنوا أنهم لا يأمنون على منصبهم، إلا إذا أقر انتخابهم.

ثم حدث في القرن الثامن الميلادي ما أدى إلى انفصال العنصر اليوناني، عن العنصرين اللاتيني والجرماني. فحدث أول الأمر الانشقاق الديني نتيجة ما جرى

في القسطنطينية من ظهور حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة Iconoclasm ، التي لم تجد قبولا في روما أو عند البابا - يضاف إلى ذلك أن نيابة رافنا أُنحت فريسة سهلة للملك اللومباردى في بافيا . غير أن ما حدث من إمعان الملك اللومباردى ايستولف في التوسع على حساب بيزنطة وروما ، أدى إلى أن يستنجد البابا (زكريا) بملك الفرنجة بين القصر ، فبادر بين باسترداد المدن التي استولى عليها الملك اللومباردى ، غير أنه بدلا من أن يعيدها إلا الامبراطورية البيزنطية ، أعطاها هبة ومنحة للبابا . وترتب على ذلك أن منحه البابا لقب بطريق الذي لا يمنحه سوى الامبراطور ، وبذلك تعرضت العلاقات السياسية بين الامبراطورية البيزنطية والبابوية للانهايار .

وإذ اتقنت هذه الحوادث روما والبابوية من الخضوع والإذعان لأية سلطة بشرية ، صار لزاما عليهما أن يقوما بتوجيه غرب أوروبا فيما يقع من المشاكل العامة . فإلى جانب ما اشتهرت به روما قديما من الأجداد ، مثل نشر السلام الرومانى ، وبسط السيادة على البحر المتوسط ، وأنها مثوى القديس بطرس ، وأنها أسهمت في نشر المسيحية في سائر أنحاء أوروبا ، ازداد سلطانها بفضل أسطورة قنسطنطين والبابا سلفستر ، وبمقتضى هبة قنسطنطين ، انتقل للبابا ما للامبراطور من زعامة وسيادة على إيطاليا والغرب ، وليس لأية سلطة علمانية أو كنسية أن تقوم في الغرب إلا بموافقة جمهورية روما التي يمثلها البابا ورجال الدين وأهل روما . وكانت هذه النظرية من أقوى العوامل في العلاقات السياسية في القرن الثامن الميلادى .

والواقع أن سنة ٧٥٠م تعتبر خاتمة مرحلة طويلة من مراحل الحيايد ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل النضال في سبيل الوصول إلى السيادة . ويعتبر البابا هو المسئول عن هذا التغيير . إذ تدخل الكارولنجيون لنصرة البابا ، فأسهموا بذلك في قيام الإمارة البابوية .

أما مملكة الفرنجة فإنها تألفت في القرن الثامن الميلادى من ثلاث ممالك صغيرة ترتبط فيما بينها بنوع من التحالف . وهذه الممالك هي استراسيا ، التي اشتملت

على وادى نهر الميز والجزء الأدنى من إقليم الراين ، ثم نوستريا ، ويحكم ملكها ما هو معروف باسم جزيرة فرنسا Ile de France و زمنديا ، ولم تكن سلطته على ا كيتانية قوية . والمملكة الثالثة ، وهى برجنديا تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب . ولم تكن الحدود بين هذه الممالك ثابتة . واحتفظت كل مملكة ببلاط يعتبر مركز حكومة إدارية بسيطة . وارتبطت طبقة النبلاء فى كل منها بروابط المصاهرة ووحدة المصالح ، وبالكراهية لكل دخيل أجنبى .

وارتقى بيت أرنولف الذى ينتمى إليه الكارولنجيون إلى السلطة فى استراسيا ، حينما أضحي بين لاندن حاجبا لبلاط استراسيا ، بعد أن اتحدت مع نوستريا زمن لوثير الثانى ملك الفرنجة ، وذلك سنة ٦١٤ . وظلت سلالته تتولى الحجابة للميروفنجيين ، وتتصرف فى كل أمور البلاد ، لما بلغه ملوك الفرنجة من الضعف الشديد ، إلى أن حانت الفرصة سنة ٧٥٢ ، بعد نهوض بين لمساعدة البابا زكريا ضد اللومباردين ، إذ أرسل بين يسأل البابا عما إذا كان من الصواب أن يصبح الحاكم الفعلى ببلاد الفرنجة حاكما رسميا كذلك ؟ ولما كانت البابوية حريصة على الحصول على مساعدة الفرنجة ضد بيزنطة واللومباردين ، وكان بين أثره فى إصلاح كنيسة غاله وتنظيم الكنيسة الجرمانية ، فإن البابا زكريا أفتى بأنه يصح له شرعا أن يخلع الميروفنجيين وأن يتخذ انتاج لنفسه . وعمل بين بتلك الفتوى ، وتوجه المبشر الانجليزى بونيفاس ملكا على الفرنجة فى كاتدرائية سواسون سنة ٧٥١ م ؛ ثم قام البابا نفسه ، بتتويجه مرة أخرى ، مع ولديه شارل (الكبير) و كارلومان ، فى يولييه ٧٥٤ وأشار إلى أن الكرسي الرسولى أمر جميع الأمة بالألا تنتخب ملوكها منذ الآن من أية أسرة أخرى ، وجعل القطع والحرمان لمن يخالف الأمر . وعلى هذا النحو ظهرت الأسرة الكارولنجية ، بعد أن مضى على ولادة شارل عشر سنوات ، وقبل أن يتولى الحكم بستة عشرة سنة .

ومنذ سنة ٧٥٤ التى تم فيها تتويج بين ، دخلت عوامل جديدة فى السياسة

الكارولنجية ، فما أنكره بيت أرنولف من أفكار تيوتونية ، لأنها استمرت في ثوب
نوستري ، لم تلبث أن لقيت قبولا ، حينما تقدمت بها روما والبابوية . ولم يعد البيت
الكارولنجي جرمانيا خالصا في كل ما يجرى في الحياة اليومية ، وفي تفاصيل العمل
الإداري ، والمحافظة على التقاليد القديمة ، إذ أصبح للدولة القبلية مطامع ضخمة ،
وآمال مسيحية استعمارية ، فاستمدت من كل ذلك حياة جديدة . وترتب على ذلك
أن الفرنجة بدأوا منذ سنة ٧٥٤ يلعبون دوراً ملحوظاً في تاريخ العالم ، فالتزموا بأن
ينشروا في أوروبا حضارة اتحدت فيها المؤثرات القبلية القديمة بالعوامل الجديدة ،
فقهرروا أوروبا وحكموها بوسائل تشبه من جهة ما يجرى في بيزنطة وما يشتهر به
أباطرتها من المهارة السياسية ، وتتصل من جهة أخرى بكلوئيس وسياسته الدينية ،
وما عند التيوتون من قوانين قبلية ، وأمدتهم الكنيسة بخوافز جديدة ، فبفضل
نفوذ البشرين ونفوذ البابا ، توافرت القوة المحركة التي تجعل الارستقراطية الفرنجية
تتنزه عن المطامع الشخصية وتؤيد شارلمان . على أنه يصح أن نضيف عاملا جديدا
سخر كل هذه القوى ، ووجهها وفق ما يريد ، وهذا العامل يتمثل في شارلمان ذاته .

شارلمان : والواقع أنه كلما أمعنا النظر في دراسة حياة شارلمان ، كلما ازداد
إدراكنا لتلك السياسة التي اتخذها . فلم ينكر شارلمان ما لأبيه من أثر في توجيه
سياسته ، فكان يصرح بأن الامبراطورية إنما ترتكز على الأسس والقواعد التي
وضعها بيبين . وما كان يفتقر إليه بيبين هو الروح الملهبة والشخصية القوية التي
أكسبت شارلمان ما حدث من تعلق قومه به ، بل تعلق الشعوب المغلوبة على أمرها
به أيضاً .

أحب شارلمان ما للفرنجة من الملابس ، واحتقر كل ما هو أجنبي عنها ، وتعلق
بلغة إقليمه استراسيا وأناشيده ؛ واشتهر شارلمان بالنشاط الوافر ، والإرادة الحديدية ،
والتمسك الشديد بالنظام والعدالة ، والشعور الديني العميق . أنكر عليه بعض
معاصريه شدة صلابته ، على حين أنه كلما ازدادت معرفة الناس به ، كلما ازداد جهمله .

وليس نمت ما هو أقوى وأشد من حكم السكسون الذين توافر لديهم من الأسباب ما يكفي لـكراهيته ، ومع ذلك فإن شارل كان عندهم خير الرجال على وجه الأرض ، وأشجعهم ، إذ أقام العدالة والإيمان وحافظ عليهما .

ومن الواضح أن شارلمان أفاد من البابوية والكنيسة أكبر فائدة في سياسته الخارجية . فما قام به من الحملات ضد اللومباردين والبافارين والسكسون ، وما ترتب عليها من تنظيمات كنسية ومرسومات ، إنما يتضح فيها أثر توجيه البابوية والكنيسة القومية . وطالما أدركنا من شارلمان الشعور العام بالمسئولية ، باعتباره قيماً على مجتمع مسيحي كبير ، وهذا الشعور إنما استمدته من البابا هادريان ، الذى كتب إليه يحضه على الفتح والتبشير والإصلاح . وعلى الرغم من أنه قلما رجع إلى رأى البابا فيما قام به من تنظيم الكنيسة القومية ، فإنه أفاد من البابوية فى أمرين : الأول ما يتعلق بنحلة التبنى التى نبتت فى أسبانيا ، التى تجعل المسيح مخلوقاً انبثق من الأب ، فهو بذلك أدنى منه مرتبة ، فتقرر استنكارها بموافقة البابا . أما الأمر الثانى فيتعلق بعبادة الصور التى أعادها مجمع نيقية سنة ٧٩٢ ، فعلى الرغم من أنها لا تختلف كثيراً عما هو معروف فى كنيسة روما ، فإن شارلمان ومستشاره الكوين ، اعتبرها أنها ليست إلا عبادة للأوثان والأصنام ، ويرى بعض المؤرخين « دولنجر » أن ما اتخذ شارلمان من قرار إنما يهدف به إلى اتخاذ اللقب الامبراطورى ، وأبدى البابا استعداده لمهاجمة قسطنطين (السادس) وأمه أيرين والخط من قدرها لأنهما حازا دون سند شرعى أملاكاً تابعة للقديس بطرس (البابوية) .

فكرة الامبراطورية : يؤكد اينهارت أن ما حدث سنة ٨٠٠ من تتويج شارلمان امبراطوراً ، إنما جاء مفاجأة للشخص الذى لا يهم الأمر سواه . فيشير إلى أن شارل كان منذ أول الأمر راغباً عن اتخاذ اللقب الامبراطورى ، وأصر على أنه لو علم بنية البابا (ليو الثالث) ، ما دخل الكنيسة فى ذلك اليوم ، على الرغم من أنه من الأعياد الكبيرة .

والواقع أن تنويج شارلمان إنما جاء نتيجة لما وقع من الحوادث والمؤامرات والمنازعات في روما والقسطنطينية ، التي لا ترجع في تاريخها إلى أبعد من سنة ٧٩٨ ذلك أنه حينما مات البابا هادريان سنة ٧٩٥ ، تقرر اختيار ليو مكانه . والمعروف أن ليو خدم بالدار البابوية زمنا طويلا ، واشتهر بالدهاء السياسى . ولعل هذه الصفة الأخيرة هي التي جعلت رجال الدين وأهل روما ينتخبونه ، لما لسوا فيه من المقدرة على المحافظة على دوقية روما والمقر الرسولى ، على أن ما اشتهر به ليو من سوء الخلق ، وما جرى اتهامه به من السيمونية والحنث بالآيمان والتزوير والزنا ، كان مادة خصبة استغلها في مهاجمته أعداؤه بروما ، ومنهم جماعة من أسرة هادريان تتطلع إلى أن يتولى البابوية رجل يمثل مصالحهم . يضاف إلى ذلك أن ما لجأ إليه ليو من التدخل في إدارة المدينة أدى إلى سخط الناس وتذمرهم . واشتد قلق الناس حينما لم يُسفر تحقيق هذه الاتهامات عن نتيجة حاسمة . فأخذوا يتساءلون ماذا تكون النتيجة لو تبين أن البابا مذنب ، من ذا الذى يستطيع شرعا أن يعزل البابا ؟ وإذا تم عزل البابا ، فما أثر ذلك على هذا المنصب ؟ وإلى من يتوجه المسيحيون ليهديهم ؟ أليس ثمة سلطة أخرى تُصلح تلك التي ثبت أنها ليست معصومة من الخطأ ؟ وأخذ الاعتقاد يرسخ ، بأن ما حصلت عليه البابوية من استقلال ، وما نعمت به من عدم المسئولية ، لم يؤد إلا إلى ما حل بالعالم المسيحى في الغرب من فوضى الديانة والتفكك .

أيرين وقسطنطين : لو أن الأحوال كانت عادية ، لكان الحل الواضح أن يعود الأمبراطور إلى سابق مكانته من الزعامة ، فعلى الرغم من أن قسطنطين نبت من أسرة مكروهة ، فإنه ما زال شابا صغير السن فإذا تحرر من وصاية أمه أيرين ، فإنه ربما عاد إلى الطريق المستقيم ، وإذا رجع إلى الصواب ، صار له الحق في أن يشرف على البابا في الغرب . غير أن الاقتراض جاء متأخرا ، لأن قسطنطين السادس وقع فعلا ضحية طموح أمه التي لم تتردد ، في سبيل تحقيق رغبتها في الانفراد بالحكم ، في تحريض الجند على مهاجمته والقبض عليه وسمل عينيه وذلك في سنة ٧٩٧ ، فظل في الحبس حتى قضى نحبه .

والنتيجة التى ترتبت على ذلك ، أن العرش أضحى شاغرا . وعلى الرغم من أن رعاى الملعب هَلَّلُوا لإيرين التى صارت امبراطورة ، فإن عملها لقي سخطا شديدا فى الأقاليم وعند العقلاء من الرجال .

أما أثر الجريمة فى الغرب ، فإن شارل لم يعلم بخبرها إلا أواخر سنة ٧٩٧ ، حينما جاءت رسل إيرين إلى آخن ، ولم تلبث أخبارها أن ذاعت فى أنحاء الغرب بعد طرد البابا ليو من روما سنة ٧٩٧ . وكأن الحادثين وقعا فى وقت واحد ، وكان لوقوعهما معا أهمية كبيرة . فالبابوية والامبراطورية هويتا سويا ، وإذا تطلخت سمعة البابوية بالعار ، حل بالامبراطورية الدمار .

لم يقبل الفرنجة مطلقا أن يتولى عرش الأباطرة امرأة ، تعتبر زعيمة المهترقين . لم يرد فى المراجع ما يشير إلى رد شارلمان على رسالة إيرين ، غير أن رعاياه اعتقدوا أن البيزنطيين فقدوا ما كان لهم من حق قديم فى الانتخاب ؛ وأن ماجرى من الحوادث ليس إلا نذيرا ودليلا على غضب الله . واستبد اليأس بالناس فى مستقبل الكنيسة ، وتفككت عرى السلطان ، وتهدد العالم المسيحى الانحلال .

خاف الناس أن يحل ببيزنطة الدمار ، وأن تقع غنيمة فى يد المسلمين ، فكل أوروبا كانت وقتذاك تتحدث عن شهرة هارون الرشيد ونخامة بلاطه فى بغداد ، وأنه لم يعد ثمة ما يحول دون توغل جيوشه فى أوروبا لتلتقى بالجيش الأموى من قرطبة ، فيتم بذلك سحق الأمم الغربية . وأحس الناس فى آسيا الصغرى بشئ من هذا الخوف . أما بطريك بيت المقدس ، فإنه فقد كل أمل فى أن تتولى القسطنطينية حمايته ، فدعا شارل لينهض إلى مساعدته ، وأرسل رهبانه إلى إيطاليا بمفاتيح القبر المقدس .

كتب الكوين : أن ثمت ثلاث قوى فى العالم (المسيحى) : البابا والامبراطور والملك . وإذا أصاب البابا والامبراطور الفشل ، فلا بد أن يضطلع بأعبائهما أقوى الملوك . ورأى شارل أن تسوية هذه الأزمة المزدوجة إنما تتم باتخاذ إجراءين : الأول : هو أن يعيد الثقة فى البابوية ، والأمر الثانى ، هو أن المحافظة على هذه الثقة مستقبلا

تتطلب إعادة الامبراطورية . وعلى الرغم من أنه لم يرَ ما يدعوا إلى أن يتخذ مباشرة اللقب الامبراطورى ، وأنه توقع مقاومة عنيفة من قبل البيزنطيين ، وأنه تشكك فى شرعية العمل الذى اقترحه ، فإنه أعد نفسه لأن يتخذ عاجلا أو آجلا الخطوة الحاسمة . قدم شارل إلى روما فى ٢٤ نوفمبر سنة ٨٠٠ ، ثم أخذ يشرح فى المجلس الذى عقده بعد ثمانية أيام من وصوله الأسباب التى جاء من أجلها ، وتألف هذا المجلس من رجال الدين من الفرنجة والرومان ، وبعد أن استعرض كل الأدلة والأسانيد ، تبين له براءة ليو من التهم الموجهة إليه ، واطمأن رجال الدين إلى سلامة موقف البابا . انتهى من هذا القرار فى ٢٣ ديسمبر سنة ٨٠٠^(١)

وبعد يومين ، أى فى ٢٥ ديسمبر ، ازدحم بكنيسة القديس بطرس بروما حشد كبير من الفرنجة والرومان لغرض مختلف تمام الاختلاف ، كان ذلك يوم عيد الميلاد . وبينما كان شارلمان ينهض من ركعته ، بعد اختتام الصلاة ، تقدم نحوه البابا ليو ، ووضع التاج الامبراطورى على رأسه ، فهلل المصلون ، وهتفوا بشارل أغسطس ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور العظيم ، المحب للسلام ، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر ، ثم ارتفع دعاء الحاضرين فى صوت جهورى يطلبون من القديسين أن ينصروا الإمبراطور الجديد وأبناءه ورعاياه « وهكذا بُعثت الامبراطورية ، وصار لغرب أوروبا امبراطور رومانى حرة أخرى .

على أن مظاهره بلغت ما بلغت من هذه الدقة والنظام ، من العسير أن تحدث دون أن يكون ثمة اتفاق سابق . لم يكن شارل فيما يبدو قد أخذ على غرة ، كما يزعم انه هارت لأنه قبل فى هدوء وأناة وصبر ، أن يجرى إلباسه العباءة الامبراطورية . ويروى لنا مؤرخ بيزنطى ما كثر ، أنه جرى مسح شارل بالزيت المقدس من قمة رأسه

(١) فى نفس اليوم وصل إلى روما راهبان من قبل بطريرك بيت المقدس ، يحملان مفاتيح وعلم القبر المقدس ، وجبل الجحمة calvaire ومفاتيح المدينة المقدسة ذاتها - ولعل هذا الإجراء قد جرى تديره ليرفع ، قبيل الاحتفال بعيد الميلاد ، من شأن الملك الذى يتطلع الجميع إلى أن يتخذ لقب زعيم المسيحية

إلى أخص قدمه ، ولم تكن هذه الطقوس غير مألوفة في تنويع الأباطرة ، وتشير رواية أخرى إلى ماحدث من مراعاة كل الرسوم التقليدية في تنويع الامبراطور ، وفي نفس الوقت ، تم أيضا تنويع الابن الأكبر كما يخاف أباه في مملكة الفرنجة .

والواضح أن التنويع قام به جماعة ، فلا نستطيع أن نتصور أن ليو يسير على غير هدى فلا بد أنه كان متأكدا من حضور هذا الجمع ، وأن البطريق (شارلمان) سوف يكون حاضرا . وتفترق حوليات لورش عن رواية إينهارت في الإشارة إلى أن ليو استشار في ذلك رجال الدين وأعيان الفرنجة وأهل روما ، فوافقوه على أن يتخذ شارل لقب أمبراطور ، لأنه لم يعد بالقسطنطينية امبراطور . وتضيف الرواية ، أن شارل تلقى هذا القرار بما يليق به من التواضع والرضى . وأعقب ذلك إجراء التنويع .

اعتبر شارل نفسه ، كما اعتبره رعاياه ، الوريث الشرعي لقسطنطين السادس الذي خلعه أمه عن العرش ، ولم يكن من رأى شارلمان وجود امبراطوريتين رومانية وبيزنطية ، إذ يعتبر الامبراطورية وحدة غير قابلة للانقسام ، أما البيزنطيون فاعتبروه مقتصبا للحكم ولم يعترفوا به امبراطورا . على أن شارل أدرك ما في موقفه من نواحي الضعف ، فحرص على أن يصل إلى اتفاق مع بيزنطة ، وقامت فكرته على أن يتزوج من إيرين ، غير أن ذلك المشروع لم يتم ، لسخط الشعب البيزنطي وعزل إيرين . ولما تولى نقفور الحكم سنة ٨٠٢ م عرض شارل عقد اتفاق مع أخيه نقفور مثلما حدث زمن دقلديانوس ، بأن تبقى الامبراطورية متحدة من حيث الفكرة ، على أن يحكمها أكثر من امبراطور . ولما لم تلق عروضه استجابة من قبل بيزنطة ، استولى على دالماتيا والبندقية التابعتين للدولة البيزنطية . ومع ذلك لم يحصل على اعتراف الحكومة البيزنطية بلقب الأمبراطور . إلا بعد حربين وبعد أن تنازل عن بعض أملاكه ، وبعد مفاوضات طويلة ، وبعد أن تعرضت الامبراطورية البيزنطية لهزيمة ساحقة على يد البلغار ، لقي فيها نقفور مصرعه . والواقع أن شارل لم يكسب امبراطوريته إلا بفضل ما حل بالدولة البيزنطية من كوارث ، وهذا هو الذي حدث فعلا حين قدم في ٤ أبريل

سنة ٨١٢ إلى آخن رسل من قبل الامبراطور ميخائيل الأول لإجراء تسوية ، فخطبوا شارل بالامبراطور الباسيليوس . والمعروف أن شارل أرسل إلى الامبراطور ميخائيل رسالة يشير فيها إلى سروره لما حدث من الاتفاق بين الامبراطوريتين الشرقية والغربية ، غير أنه لم تجر في المفاوضات أية إشارة إلى الامبراطورية الغربية ، فعنى ذلك أن ما اتخذ شارل من لقب امبراطور إنما هو لقب شخصي ، ولا يرتبط بأنه امبراطور على إقليم من الأقاليم ، أو على أقل تقدير أنه لم يكن امبراطورا رومانيا . ومن الملحوظ أن شارل منذ هذا التاريخ أسقط من لقبه عبارة « الذى يحكم الامبراطورية الرومانية » ولعل ذلك يعتبر جانبا من الثمن الذى دفعه للوصول إلى هذا الاتفاق . ويشير بعض المؤرخين إلى أن سنة ٨١٢ لا ٨٠٠ تعتبر تاريخا هاما ، بسبب ما حدث من انقسام الامبراطورية الرومانية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والأمبراطورية الغربية وبذلك يظل تاريخ الامبراطورية الغربية مستمرا على أن ذلك ليس هو المقصود بالاتفاق ، لأن أحدا من الكارولنجيين ، باستثناء لويس الثانى ، لم يفكر فى استخدام لقب « الامبراطور الرومانى » لأنه ليس من حقهم ، وليست الأمبراطورية الرومانية من ممتلكاتهم ، فالمقصود هو الأمبراطورية البيزنطية والأباطرة البيزنطيون الذين اتخذوا لقب أباطرة الرومان .

ثم أقدم شارل فى سنة ٨١٣ على اتخاذ خطوة جديدة ، إذ رشح ابنه لويس ليكون قسما له فى الحكم ، غير أن ذلك لم يتحقق أيضا لأن شارل مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ . والخلاصة أن الناس لم يجمعوا على اعتبار شارل امبراطورا ، ولم يترتب على اتخاذ لقب الامبراطور الرومانى نتيجة من النتائج ، فلم يصبح شارلمان بسببه صاحب سلطان فى أسبانيا أو بريطانيا أو أفريقيا التى كانت كلها ولايات تابعة للامبراطورية الرومانية فى الزمن الغابر ، بل لم يجلب اللقب الأمبراطورى إلى شرلمان شبرا من أرض لومبارديا التى أخضعها وتملك عليها قبلا .

ومع ذلك فإن شرلمان نظر إلى امبراطوريته على أنها دولة مقدسة ، وأحسن أن

العناية الإلهية نصبته حاكما على المسيحيين ، واعتقد أنه أقام مدينة الله التي يقصدها أغسطين ، على أنها نظام دنيوى لسد حاجات الناس الدنيوية بما يرضى الله ، ولإصلاح الحياة الدنيا وتهيئة الناس إلى حياة أفضل في العالم الآخر . على أن أغسطين رأى أن المظهر المادى لمدينة الله إنما يتمثل في الكنيسة الكاثوليكية . ولم يجد شارلمان في ذلك تناقضا ، إذ اعتبر نفسه على رأس النظامين الكنسى والدنيوى ، وأن امبراطوريته تطابق ما لكنيسة الله من مملكة على الأرض .

وكأن شارل نقل إلى حكومة الفرنجة فكرة الحكومة التيقراطية التي أضحت عاملا هاما في تاريخ غرب أوربا ، غير أنه في الوقت ذاته تسبب فيما سوف يقع من نزاع بين الامبراطورية والبابوية .

العلاقات بين شارلمان والمسلمين : تنتقل إلى مناقشة موضوع العلاقات بين شارلمان والمسلمين ، فالمعروف أن الأوضاع السياسية في العالمين الإسلامى والمسيحى وقتذاك هى التى أدت إلى قيام هذه العلاقات . وهذه الأوضاع تتمثل فيما يلى :

أولا - العداء المستحكم بين بيت أرنولف (الكارولنجيين) وبين الأمويين فى الأندلس .

ثانيا - النضال بين الأمويين والعباسيين فى الشرق ، وامتداده إلى الأندلس ، ومحاولة العباسيين انتزاع الأندلس من أيدي الأمويين .

ثالثا - الحروب المستمرة بين العباسيين والبيزنطيين .

رابعا - العداء بين البابوية والامبراطورية البيزنطية .

تعرض الأمويون ، عقب قيام الخلافة العباسية ، إلى الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، فهلك منهم عدد كبير ، ومن نجا منهم التمس طريقا للاختفاء أو الهرب ، ومن الذين فروا من هذا الاضطهاد عبد الرحمن الأموى من سلالة هشام بن عبد الملك ابن مروان ، حيث لجأ إلى أسبانيا . واستطاع عبد الرحمن ، بفضل اليمنيين أن يقيم له ملكا فى أسبانيا على أنه حدث فى السنوات السابقة على قدوم عبد الرحمن ، أن أعلن

أحد القرشيين وهو عامر بن عمرو نفسه واليا على أسبانيا من قبل الخليفة المنصور وذلك سنة ٧٥٣ . وفي تلك الأثناء تطلع والى برشلونة إلى بين ليساعده ضد الينيين ، فنشأت بذلك العلاقة بين بين والمسلمين فى أسبانيا ، ووقع فى تلك الأثناء أيضا من الثورات فى شمال إفريقيا مادعا العباسيين إلى أن يرسلوا حملات انتهت بالاستيلاء على القيروان سنة ٧٦١ وفى شمال البرانس حدث من الأحوال ما يماثل ذلك ، إذ لم تهدأ نائرة جنوب غاله ، منذ أن نهض بالحكم حجاب البلاط ، وذلك لتغلب العنصر الرومانى بهذه الجهات ، ولما تمتع به الكونتات من استقلال يكاد يكون كاملا - وترتب على ذلك أن حاكم ا كيتانيا المعروف باسم كونت أود Eudes ، حينما أحس بما يتعرض له من تهديد من قبل حجاب البلاط ، عمل على تأمين نفسه ضد شارل مارتل ، فزوج ابنته من والى الثغر المعروف باسم عثمان سنة ٧٣٠ ، بينما تنازل موروونتوس Maurontus كونت مرسليا لأمير أربونة (ناربون) عن آرل وأفينيون ومدن أخرى . ولما مات أود سنة ٧٣٥ ، انقض شارل مارتل على ا كيتانيا ، فاحتل مدنها ، غير أنه لم يلبث أن ترك السلطة فى أيدي أمرائه ومقطعيه ، ولم يهاجم المسلمين الذين سيطروا وقتذاك على ساحل خليج ليون . وما وجهه شارل مارتل سنة ٧٣٩ من حملة حرية لم يقصد بها المسلمين ، بل وجهها ضد موروونتوس الذى لاذ بالهرب . ثم ازداد العداء ضد دوقات الجنوب ، بعد أن تم عزل شلدريك الثالث آخر ملوك الفرنجة ، وتولية الملك بين سنة ٧٥١ ، وعندئذ وجد عبد الرحمن الأموى فى وايفز دوق ا كيتانيا حليفا قويا ضد خصمه الفرنجى ، على أن سقوط أربونة سنة ٧٥٩ فى يد بين أدى إلى أن تصبح أطراف مملكته مصقبة لأملاك المسلمين (والى برشلونة) .

وما حدث فى السنوات الواقعة بين ٧٦٠ ، ٧٦٨ من هزيمة وايفر ، وتطور التحالف بين البابا والفرنجة لمقاومة الدولة البيزنطية ، يعتبر عاملا هاما فى تطور العلاقات بين الفرنجة والمسلمين . ذلك أن سياسة البابوية كانت ترمى وقتذاك إلى منع قيام تحالف بين ملك الفرنجة وقسطنطين الخامس الامبراطور البيزنطى .

ثم وقع من الحوادث ما جعل بين يبعث بسفارة إلى بغداد وجدت ترحيبا من قبل الخليفة العباسي (المنصور) ، إذ أن العلاء بن المغيث الذي أرسله المنصور سنة ٧٦٣ لاسترداد الأندلس من الأمويين ، حلت به هزيمة ساحقة أدت إلى فشل سياسة المنصور ، ولعل هذا الفشل هو الذي جعله يستقبل سفارة بين ، يضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية^(١) يعتبر أيضا من العوامل التي جعلت بين يسمى إلى أن يلتبس صداقة الخليفة العباسي ، عدو الإمبراطور البيزنطي ، ففي سنة ٧٦٥ أرسل بين سفارة إلى بغداد ، مكثت بها ثلاث سنوات ، ثم عادت يصحبها رسل من قبل الخليفة المنصور يحملون الهدايا إلى بين ، فاستقبلهم بين بالحفاوة. ثم عادوا بطريق البحر إلى بغداد ، وقد حملوا معهم هدايا بين ، ولم يكن المقصود بسفارة بين سوى إقامة حلقة من المحالفات ضد أموي الأندلس^(٢) والإمبراطور البيزنطي .

مات بين سنة ٧٦٨ ، وخلفه على الحكم ولده شارل وكارلومان ، وتولى هادريان البابوية سنة ٧٧٢ ، فبدأ التحالف بين شارل والبابوية . وفي السنوات الخمس التالية ، التي أمضاها شارل في قتال السكسون واللومبارديين ، تعرض مركز عبد الرحمن الأموي للخطر ، نتيجة ارتباط الحزب العباسي بالأندلس بثورة قام بها البربر في وسط اسبانيا ، وهذه الثورة أعدها ودبرها ثلاثة ولاة : والي برشلونة ، سليمان بن يقظان العربي ، وعبد الرحمن بن حبيب الذي اشتهرت أسرته بعداوتها للأمويين ، وأبو الأسود

(١) أشاع البابا في سنة ٧٦٠ أن الإمبراطور البيزنطي أرسل أسطولا مؤلفا من ثلاثمائة سفينة لمهاجمة روما وفرنسا ، وحرص البابا على أن يقدم بين إلى إيطاليا لمقاومته ؛ انظر :

Pierenne : Muhammad ad & Charlemagne p. 227.

(٢) رفض بين إجراء محالفة مع أمير برشلونة - ورأى أن يتحالف مع العباسيين أعداء الأمويين بعد أن أخضع اkitانيا ومد أطراف ملكة نحو الجنوب ؛ إذ كان يطمح في مواصلة التوسع جنوبا انظر : (Cambridge Medieval History II. 604.)

يوسف (الحسين بن يحيى) الذى أمر عبد الرحمن الأموى بحبس أبيه ، وتضمنت خطتهم حشد قوات من البربر بإفريقية وقطع طريق الاتصال بين عبد الرحمن والبحر المتوسط ، ولتدعيم مركزهم فى الشمال توجه سليمان وابنه يوسف إلى شارل فى بادربورن وعرضوا عليه حمايتهم وحماية ممتلكاتهم ، مقابل الحصول على مواضع فى شمال أسبانيا . على أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى دفع شارلمان للقيام بمغامرته فى أسبانيا . لم يشر اينهارت إلا عرضا إلى أن شارل كان يأمل فى الاستيلاء على بعض المدن الأسبانية غير أن ما ورد فى قصة تيرين المزعوم التى ترجع إلى القرن الثانى عشر الميلادى من أن القديس جيمس الرسول ، الذى يقع مشهده فى Comopostele بشمال غربى أسبانيا ، تراءى لشارل أثناء النوم ودعاه للنهوض لاستخلاص جليقية من يد المسلمين ، وهى التى يقع بها قبره . هذه الرواية إنما تدل على ما يكنه المسيحيون وقتذاك من الكراهية للمسلمين الذين استولوا على بلادهم ، ومن الدليل على ذلك أن ملوك أستوريس وأساقفة طليطلة ظلوا على اتصال مستمر بالمسيحيين فى مختلف البلاد ، فأثاروا عندهم الشعور العدائى ضد المسلمين . أما رجال الكنيسة فصاروا يترقبون الساعة التى ينبغى أن تعود فيها قرطاجنة القديس أغسطين إلى حظيرة الصليب ، وأن تقوم المجامع الكنسية بوضع قوانين اسبانيا على نحو ما حدث فى الزمن الغابر . يضاف إلى ذلك أن شارلمان تلقى من البابا هادريان أن فكرة الحرب ضد الوثنيين هى رسالته التى اختص بها ، فأعد شارل نفسه لخدمة الكنيسة سواء على نهر الألب أو على نهر الإيرو . وربما رأى شارل أنه من الخير أن يقوم بتقوية الأطراف الأكتانية ، وأن يعمن فى تخويف الغالين باستعراض جيشه الضخم من الفرنجة ، وأن يجعل لهم عدواً آخر من غير الفرنجة يحاربونه . والواقع أن شارل كان يهدف إلى أن يجعل سلطانه يمتد إلى أقصى طرف ، يتفق مع استقرار الأمور ، وأن ينشر داخل تلك الحدود تلك الصورة من الإيمان والحضارة التى أعدها فى نطاق كنيسة الفرنجة .

وكيفما كان الدافع ، فإن شارل سار بجيوشه فى ربيع سنة ٧٧٨ ، فعبّر جبال

البرانس مجتازا مضيق روتسيفال، وفي بامبلونا أعلن البشكنس الخضوع له ، ثم توجه إلى سرقسطة ، وكان ابن العربى قد أشار بأن سرقسطة سوف تفتح له أبوابها ، غير أن ذلك لم يتحقق ، إذ امتنعت المدينة على شارل على الرغم من طول حصارها . ولما بلغ شارل نبأ اندلاع الثورة فى سكسونيا ، أمر برفع الحصار عن سرقسطة وانسحب بجيشه راجعاً إلى غالة ، وخرّب أثناء مسيره أسوار بامبلونا . غير أنه أثناء اجتيازه مضيق روتسيفال ، تعرضت مؤخرة جيشه للهجوم من قبل البشكنس ، فأنزلوا القتل والنهب بجند شارل، وفى هذه المعركة لقي رولان مصرعه ، وهذه المعركة خلّدتها قصيدة رولان ، التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

وما حدث لشارلمان من الهزيمة فى روتسيفال جعلته يفكر فى إقامة إمارة مستقلة فى داخل مملكة الفرنجة ، وهى مملكة اكيثانيا ، وجعل مهمتها الأساسية ملاحظة نشاط المسلمين فى منطقة الحدود ، ونصب على هذه المملكة ابنه لويس ، الذى تعلم من أبيه أن يعتبر المسلمين فى أسبانيا عدوه الطبيعي ، وأن نهر الإبرو هو الحد الطبيعى لمملكته، ووجد فى الدوق وليم أمير تولوز قائداً كفأ لتنفيذ سياسة حازمة على الحدود. على أن ما حدث من الحروب بين قوات الفرنجة والقوات الأموية كان فى صالح الأمويين حتى سنة ٨٠١ ، حين سقطت برشلونة فى يد الفرنجة ، ثم استولى لويس سنة ٨١١ على طرطوشة ، وأعقب ذلك عقد هدنة مع الحكم استمرت قائمة حتى وفاة شارلمان . على أن الطرف الأسبانى لم يمتد إلى نهر الإبرو، إنما وصل إلى خط يمتد شمال، وشمال شرق برشلونة ويسير موازياً لجبال البرانس . وفى سنة ٧٩٩ خضعت جزر البليار لحماية الفرنجة .

وما جرى فى الشرق من الأحداث ، إنما يدل على ما أحرزته الجيوش العباسية من انتصارات على البيزنطيين فى آسيا الصغرى زمن المنصور والمهدي ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥ ، ٧٨١ ، فطلبت ايرين الصالح مقابل دفع الجزية .

ثم ازداد مركز ايرين حرجاً بسبب افتقارها إلى التأييد من داخل البلاد ،

وما تعرضت له من عداوة الغرب، فحاولت أن تمهد محالقة مع شارل يزيدتها قوة ومثانة الاقتراح بزواج ابنتها قنسطنطين من ابنة شارلمان دوتروود ، وأحبت أن تجذب البابا إلى جانبها فأعادت عبادة الصور المقدسة . غير أن البابا هادريان كان محريصاً على منع التحالف بين بيزنطة وآخن ، فعمد إلى إخطار شارلمان بما جرى من العلاقات بين إيرين والعباسيين ، وإلى ما يقوم به البيزنطيون من التآمر في إيطاليا ولاسيما بين الأمراء المقطعين من اللومباردين في الجنوب . ففي سنة ٧٨٧ أرسلت إيرين إلى أريغيس دوق بنينفنتو خليفة البطرقيّة ، على أنه من أتباع قنسطنطين السادس ، وهلم شارل بذلك من البابا ، غير أن جريمه والد الذي خلفه في الدوقية لم يقبل عروض إيرين وابنتها قنسطنطين السادس . فتمرضت بنينفنتو للهجوم من قبل الحاكم البيزنطي في صقلية ، فنهض شارلمان لمساعدته ، وأنزل الهزيمة بحاكم صقلية والبيزنطيين ، واستولى على أستريا ، غير أنه حدث من الأمور ما جعل شارل يسير شمالاً لمواصلة الحرب مع الآفار والسكسون فأغفل أمور الشرق .

وتعرضت أملاك البيزنطيين لغارات شديدة برا وبحرا من قبل العباسيين ، وأشد هذه الحروب وأخطرها تلك التي وقعت سنة ٧٩٦ ، حين أوغل الرشيد بجيشه في آسيا الصغرى ، وفرض الصلح على إيرين ، مقابل دفع جزية كبيرة ، وفي نفس السنة أرسلت إلى شارل تملن تنازلها عن دعاويها في بنيفنتو وأستريا ، والراجح أنها احتاجت إلى مساعدته ضد الأحزاب البيزنطية وهرون الرشيد ، وترتب على ذلك أن قبل شارل استئناف العلاقات الودية مع إيرين .

يشير بكرر إلى أن فكرة التحالف بين هرون الرشيد وشارل إنما ترجع إلى مادبره البيزنطيون من مؤامرات في جنوب إيطاليا ، وإلى ما وقع من التخاصم بين أفراد البيت الأموي في الأندلس على الحكم ، والاستجداء بشارل للتدخل في تسوية المشاكل الأسبانية . فتألفت سفارة شارل إلى هارون الرشيد من سحسmond ولنتفرد ، ومن يهودى اسمه إسحاق ليقولى الترجمة . ويبدو أن السفارة أرتحلت حوالى سنة ٧٩٧

ومكثت ثلاث سنوات ، مات أثناءها سجنسوند . ولتفرد . والراجح أنهما ماتا بعد أن أنجزا مهمتهما ، لأن هارون أرسل مبعوثين ردا على هذه السفارة . ويزعم بكار أن أغراض السفارة اشتملت على السعى لتحقيق هدف أو أكثر من الأهداف الآتية : وضع شارل في أسبانيا وغرب البحر المتوسط باعتباره مسئولا عن مصالح العباسيين في هذه الجهات . الهدف الثانى التحالف مع الرشيد وما يترتب على ذلك من التعاون المشترك ضد الأمويين بأسبانيا وضد البيزنطيين ، أما الهدف الثالث فينبطوى على تيسير قدوم الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة . ويشير إلى أن ما اتبعه شارل من سياسة هجومية في أسبانيا أرضت الخليفة العباسى ، فاستولى على برشلونة ووشق وبامبلونا ، وأقام حكومة الطرف الأسبانى ، ورد هجوم العرب على جزائر البليارسنة ٨٠٧ . وما حدث من هجوم فى البحر المتوسط من قبل الأغالبة بشمال إفريقيا الذين يعترفون بالتبعية للرشيد ، يعتبر تأييدا من قبل حكومة بغداد لنشاط شرلمان . فى سنة ٨١٠ ، ٨١٢ هاجم الأغالبة جزر قورسيقة وسردنية وصقلية ، وأعقب هذا الهجوم النزول بإيطاليا ذاتها سنة ٨١٣ ، ولعل كل ذلك هو الذى أرغم كلا من الإمبراطورين نففور وميخائيل على تسوية الأمور بشأن تنويجه إمبراطورا .

أما مسألة الحجاج المسيحيين ، فالمعروف أن المسيحيين لم يتعرضوا للمعاملة سيئة من قبل المسلمين ، وأن عددا كبيرا منهم دخل فى خدمة الحكومة العباسية . غير أن الحركة المناهضة لعبادة الصور فى بيزنطة وظهور نحلة التبنى فى الغرب ، أدت إلى أن ينفصل عن القسطنطينية لا الغرب فحسب ، بل الكراسى الرسولية الأخرى روما ، والإسكندرية ، وبيت المقدس وانطاكية . وما أورده إينهارت من الإشارة أن هارون الرشيد قبل أن يكون لشارل السلطة والإشراف على الأماكن المقدسة ، ربما كان المقصود من ذلك التخلص من النفوذ البيزنطى فى بيت المقدس . وتشير الجوليات الملكية وهى المصدر الوحيد المعاصر ، والذى نقل عنه إينهارت هذه الواية ، إلى ما قام به بطريرك بيت المقدس من إرسال مفاتيح كنيسة القيامة إلى شارل فى ٢٣ ديسمبر

سنة ٨٠٠ وماحدث سنة ٨٠٨ يدل على كراهية رجال الدين الحليين لرجال الدين في
نيزنطة ، إذ أن رهبان جبل الزيتون طلبوا إلى البابا أنهم يأملون في حماية ملك الفرنج .
منافس تقفور وحليف هارون الرشيد ، من ظلم البيزنطيين المتفطرسين .
الواقع أنه من العسير أن نتصور أن البطريك والخليفة (الذى لم يرد له
ذكر فى المصادر) اعترفا بشرلمان حاميا على الأماكن المقدسة . والراجع أن مفاتيح
القبر المقدس وموضع صلب المسيح لم تكن إلا كالمفاتيح الصغيرة لكنيسة القديس
بطرس بروما ، التى يهديها البابوات إلى كبار الشخصيات ، أو كالمشارب والتعاويد ،
وكذلك كان شأن مفاتيح المدينة وجبل صهيون ومدينة داود ، حيث حفلت
الكنيسة الكبيرة بكثير من الذكريات المثيرة كالحلقة والعمود الذى صلب عليه المسيح ،
والموضع الذى هبط فيه الروح القدس على المسيح ، والموضع الذى به قبر العذراء
مريم ، والحجر الذى تحجر عنده القديس إيتين . أما العلم فلم يكن إلا الصليب ذاته ،
وجرت تسميته بهذا الاسم لأنه يشبه اللواء الذى انتصر به المسيح ، وهو عبارة عن
قطعة من المعدن المذهب ، اشتملت على قطعة صغيرة من صليب الصلبوت . هذه المقدسات
لم تكن لها أهمية سياسية ، وليست إلا شاهدا على ما يقدمه رجال الدين فى بيت المقدس
من الشكر لشارمال ، أما البطريك فاعتبرها من مظاهر التبزيك .
إنما هل كان ثمة ما يدعو البطريك لأن يبذل الولاء لشرلمان ؟ حدث فى شهر يونيه
سنة ٨٠١ أن استقبل الامبراطور أثناء عودته من إيطاليا إلى فرنسا ، رسولين أحدهما
من قبل هارون الرشيد والآخر من قبل إبراهيم بن الأغلب ، فأخبراه بأن السفارة
التي أرسلها سنة ٧٩٧ إلى الرشيد نجحت فى مهمتها ، ووصل إسحاق سنة ٨٠٢
بهدية الرشيد ، ومن بينها الفيل الذى اعتبروه من الغرائب .

وما أرسله أميرا آسيا وإفريقيا إلى شرلمان من الهدايا إنما ترمز إلى ما يربطهما من
علاقات المودة مع شارل . والراجع أنه لم يكن ثمة من التحالف الدبلوماسى بين
هارون وشارل إلا ما كان من انقطاع الحروب بينهما . وفيما يتعلق بالأراضى المقدسة

لا تخرج المسألة عن أن مابدا من مظاهر النبل والشرف من قبل خليفة اشهر بالتسامح وكفل الأمن والطمأنينة للمسيحيين في بلاده ، وأتبع ذلك بما أرسله من هدايا نالت تقدير شارلمان ، ولم تكن المصالح المشتركة بينهما في حاجة إلى أن يتنازل هارون الرشيد عن جانب من أراضيه أو سيادته إلى شارلمان . ويضاف إلى ذلك أن هدايا هارون الرشيد إلى شارلمان . التي أرسلها مع سفارته سنة ٨٠٧ لا تقل في أهميتها عن الهدايا التي جاء بها من قبل ، فمنها منسوجات رفيعة رائعة الجمال ، ومنسوجات حريرية وعطور وشمعدانات ، وساعة من البرونز المطلي بالذهب ، تدق الساعات ، وحين تدق ساعة الظهيرة ، يخرج من وجهها اثنا عشر فارسا من اثنتي عشرة نافذة ، تغلق خلفهم .

هذه العلاقة الودية بين الملكين ترتب عليها نتائج طيبة للمسيحيين الذين جاءوا إلى الأراضي المقدسة أو أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، وورد ذكرها في بعض الوثائق التي ترجع إلى ما بعد وفاة شارلمان مثل رحلة الراهب الفرنجي برنارد التي قام بها إلى فلسطين ووفقا لهذه الشواهد ، ازداد اهتمام شارلمان بما في بيت المقدس من أديرة وخانات ، يأوى إليها الحجاج القادمون من مملكته ، ففي جنوب كنيسة بيت القيامة شيد شارلمان خاناً اختص بالنزول فيه المسافرين الذين يتحدثون اللغة الرومانية ، وأهدى شارلمان كنيسة العذراء مكتبة ضخمة ، ووقف عليها بعض الحدائق والبساتين وشيد أيضا ديرا يتسع لسبعة عشر راهبا .

استمرت العلاقات بين الأمبراطور وبطريك بيت المقدس ، ففي سنة ٨٠٩ بمث البطريك إلى البابا ليو الثالث يطلب إليه التوسط عند الامبراطور للاهتمام بأمر اثنين من حجاج الفرنجة . وحوالي هذا الوقت تعرض الراهبان اليونانيان بدير جبل الزيتون للإهانة والرمي بالزندقة من قبل الراهبان اليونانيين بدير القديس سابا ، لأنهم اعتبروا أنفسهم غرباء في فلسطين ، وأرسلوا بشكواهم إلى البابا الذي رفعها إلى الامبراطور ، وهذا دليل على أن شارل لم تكن له السيادة على هذه الجهات .

يضاف إلى ذلك ما أورد ماينهارت عن سياسة شارلمان لإزاء المسيحيين ، إنما يدل على أن ما يقوم به شارل من العطف على المسيحيين في سائر الجهات : في مصر وتونس والإسكندرية وقزطاجنة ، إنما يتطلب إنشاء علاقات ودية مع الأمراء المسلمين الذين يعيش في بلادهم عدد كبير من المسيحيين .

والخلاصة أن حماية شارلمان للأراضي المقدسة ليست إلا أسطورة ، يرتبط تفسيرها بالعلاقات بين شارلمان وهرون الرشيد . ففي أثناء حكم شارلمان لم يعلم الناس شيئاً عما للأباطور من سلطان وسيادة ، أبناً كان هذا السلطان ، على الأراضي المقدسة . وظل الحال على هذا النحو مدة ٧٥ سنة أى حتى سنة ٨٨٣ ، ٨٨٧ ، أى حين ظهرت ملاحم شارلمان لراهب دير القديس جال ، وهذا الراهب الذي اشتهر بسعة اطلاعه ، رأى في سبيل تعظيم بطله أو رغبة في إثارة خيال الناس ، أن يضيف إلى ما تلقاه شارلمان فعلاً من الهدايا الواردة في كتاب اينهارت والحوليات الملكية ، كل منتجات الشرق ، بل إنه ذهب إلى أكثر من ذلك ، فاخترع محادثة جرت بين الخليفة ورسول الفرنجة حيث صرح لهم الخليفة بأنه على استعداد أن يكون نائباً عن شارل في حكم الأرض المقدسة ، لأن أخاه شارل ليس في استطاعته أن يجتاز البحر لحماية هذه الأراضي من التبريرين .

ثم حدث في سنة ٩٢٥ أن ظهرت قصة أخرى يشير مؤلفها وهو أحد الرهبان إلى أن ما في ديريه من قطرات الدم المقدس إنما هي من دماء المسيح ، جاء بها أحد المسلمين .

شارل والقصص : ما ألفه الفرنسيون من القصص عن شارلمان يفوق بكثير ما ألفه الألمان . ولا بد أن نرجع إلى الشعر الفرنسي كيما نعرف إلى قصص رولان وتبرين ومارسميلا ومانيلون والرحلة إلى بيت المقدس ، والاثنى عشر فارساً ، والحروب مع المسلمين بكل جهات أوروبا . على أن الحقيقة تبدو غريبة على الذين يظنون أن المانيا ، وليست فرنسا ، هي التي تدين بوجودها إلى شارلمان . والواقع أن ذلك لم يكن أمراً

غريبا ، لو أدركنا أن شارل أول ما ظهر عند الجرمان ، ظهر على أنه محارب شديد
القسوة مجرد من الرحمة ، دمر ما يمتز به الجرمان من الانفرادية والذاتية . وأهم ما
تذكره من أعماله ، ما قام به من الانقضاض على أطراف بلادهم ، وقع ثورتهم وانتزاع
شبانهم وقذفهم في الحروب في جهات نائية . بينما يعتبر شارل عند غاله منقاداً وحامياً
إذ رد عنها المسلمين والدانين . واستمتعت غاله بهدوء نسبي ، على الرغم من الحروب
المستمرة ، التي لم تنشب إلا من أجل مصالح غاله ، ونبتت من أفكار لم تتردد غاله في
قبولها .

على أن أصول أسطورة شارلمان ظلت مضطربة . وكل ما نستطيع أن نقوله عنها
على وجه التحقيق أن أسسها ترجع إلى القرن التاسع وأوائل القرن العاشر . إذ أن
قصصاً لا حصر له عن بيت أرنولف انتشر وذاع في أنحاء فرنسا ، واتخذ الشعراء
المنشدون الوقائع المثيرة مثل حصار بافيا وهزيمة روتسيغالا ، وألفوا منها مقطوعات
قصيرة مثيرة ، اعتبرها السامعون لها موجزاً لما وقع من الحوادث ، وتركزت حلقات
من الأناشيد حول أسماء كبار الفرسان مثل اجبهارد الصنجيل ووليم دوق تولوز ،
وأريك دوق قريولى .

على أن المؤلفين لم يقنعوا بالحقائق المجردة ، بل أضافوا إليها حلقات من نسيج
خيالهم ، أو من قصص تتملق بالأبطال المتقدمين ، فجرت واية القصص القديمة بأسماء
جديدة ، وبذلك تطورت المأثورات الشعبية منفصلة ومستقلة عن المصادر الأدبية .
فالأنشيد المعروفة بأناشيد المآثر تتيح لنا الإلمام بتواريخ البلاط ، والإلمام بكتاب
أينهارت يوقفنا على حياة شارلمان .

على أن ما استمدته هذه الأناشيد والأغاني من هذه المصادر من المعلومات تعتبر
بالغة الغموض والشيوع ، إذ تناولها من التفسير والتحوير ما جعلها تتناسب مع حاجات
الشعر ومقتضياته .

على أن أعظم هذه القصائد وأشهرها ، هي أنشودة رولان . والأصل التاريخي كما

أورده اينهارت في ترجمته لحياة شارلمان (حوالى سنة ٨٣٠) والذي سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن روتسيفال ، إنما يتلخص في أن مؤخرة جيش شارلمان تعرضت عند اجتيازها مضيق روتسيفال لخيانة البشكنس الذين نصبوا كميناً في الغابات الكثيفة التي تغطي جانبي المضيق ، ثم انقضوا على مؤخرة الجيش فقتلوا على كل رجالها ، ونهبوا ما معهم من الأمتعة ، وتفرقوا في جنح الظلام ، فلم يعثر لهم على أثر . ويختتم اينهارت قوله : وفي هذا الحادث لقي مصرعه اجيهارد صنجيل الملك ، وأنسلم حاجب القصر ، ورولان دوق بريتاني ، وآخرون . وفي مخطوطة ترجع إلى القرن التاسع وردت مرثية بالشعر اللاتيني في اجيهارد . وما زال شاهداً قبرى رولان واجيهارد قائمين ، وأهميتهما ترجع إلى الإشارة إلى تاريخ المعركة ١٥ أغسطس سنة ٧٧٨ ، وهذا الحادث أشار إليه مؤرخ آخر في سنة ٨٤٠ ، إذ لخص رواية اينهارت وأضاف إلى ذلك أنه لا داعى لتكرار أسماء القتلى في كتابه نظراً لأنها معروفة وقد جرى تسجيلها .

ثم ظلت قصة روتسيفال مطوية نحو مائتى سنة ، حتى إذا ظهرت من جديد طراً عليها من التغيير ما يصح أن تدهش له ، لولا أننا نعلم أن هذا التغيير أمر مألوف في هذا النوع من القصص . وترتب على ذلك أن الحادث التاريخي البسيط تضخم حتى أصبح ملحمة حافلة بأعمال البطولة ، وأضحى لها دلالة مثالية قوية . ذلك أن شارلمان الذي لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، عند قيامه بالحملة على أسبانيا ، أضحى رجلاً وقوراً من رجال الدين ، يبلغ من العمر مائتى سنة ، صار ملكاً ذا حية في بياض الثلج ، امبراطوراً مقدساً ، بطل العالم المسيحي ضد المسلمين ، القائد المظفر الذي امتدت فتوحه في أنحاء العالم المتمدين ، أضحت الحملة ذاتها حلقة كبيرة من حلقات انضال بين المسيحيين والمسلمين ، وتحول البشكنس المغيرون ، وتضاعف عددهم حتى أصبحوا جيشاً كبيراً من المسلمين ، يبلغ عدده آلافاً من الجند ، واختفى اسم كل من اجيهارد وأنسلم

من مؤخرة الجيش ، ولم يبق إلا رولان ، الذى أصبح ابن أخى الامبراطور ومساعدته الأيمن ، وأعظم محارب فى العالم .

حاز قوة خارقة ، وصار بطلا قام بأعمال مجيدة لاحصر لها . صحبه صديقه الجيم أوليفر ، ورفاقه العشرة المختارون ، وهم فئة مختارة من أشجع الفرسان ، يعتبرون زهرة الفروسية الفرنسية . أما الكمين الذى أدى إلى مصرعهم فلا زال يعتبر نتيجة لخيانة من قبل الفرنجة ، إنما أصبح مؤامرة محكمة اشترك فيها مارسيليون ملك المسلمين وكونت جانيلون أحد نبلاء فرنسا ، زوج والدته رولان . والغرض من كل المؤامرة هو القضاء على رولان ورفاقه الفرسان . وهذه المؤامرة إنما نشأت بسبب ما يكرهه جانيلون من الكراهية لرولان ، والخلاصة أن ما بدأ بهزيمة بسيطة لا تختلف عما يجرى فى التاريخ من الهزائم صار بعد مائتى سنة ملحمة من أروع الملاحم ، وهى قصيدة رولان .

وهذه القصيدة اتخذت صورتها النهائية ، فيما يبدو ، حوالى نهاية القرن الحادى عشر ، وليس من العسير أن ندرك السبب الذى جعل الملحمة تتخذ صورتها التى انتهت إليها ، وأنها نالت ما نالته من الذيوع والانتشار . فال معروف أن النضال اشتد بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا حوالى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وفى نفس الوقت ذاعت أساطير وأغانى البطولة والفروسية فى أنحاء أوروبا على امتداد طرق التجار والحجاج ، وهذه الأساطير ارتبطت بأسماء الأبطال المحليين ، وارتبطت أيضا بالمدن والأديرة الهامة الواقعة على هذه الطرق . فطريق الحجاج المؤدى إلى مشهد القديس جيمس الرسول فى كومبوستيلا يمر بنفس المضيق الذى اجتازته مؤخرة جيش شارلمان ، وحلت به الهزيمة . فمن الطبيعي أن يتغنى المسافرون بصورة مجيدة لما حدث بهذا الموقع من مأساة . وشهد القرن العاشر أيضا ازدهار النظام الإقطاعى وتطور قانون الفروسية الذى ألزم التابع بأن يؤدى خدمات لسيده ، يضاف إلى ذلك أن الدعوة إلى الحرب الصليبية الأولى ألهمت حماس العالم المسيحى للحرب المقدسة ضد المسلمين . ليس لدينا دليل واضح على أن قصيدة رولان ترجع إلى أعقاب الحرب الصليبية

الأولى كما يشير بعض الكتاب. والواقع أن هذه القصيدة التي نعتبرها أيضاً أسطورة، بدأت في وقت أكثر تبكيرا، يجعلها بعضهم ترجع إلى الفترة بين الفتح النرمندي لـ ١٠٦٦، وبين الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦، وذلك أن الشاعر في مستهل قصيدته يفترض أن سامعيه يعلمون كل شيء عن شرلمان وأمرائه، وعن صداقة رولاند وأوليفر، وعن جانيون، أي أنه يروي قصة وعنها أفئدة الناس وعقولهم. والواقع أن دراسة هذه القصيدة تتطلب اهتماما خاصا للتعرف إلى المراحل التي تحول فيها التاريخ إلى أسطورة، وتحولت الأسطورة إلى ملحمة. فـ رولان دوق بريثاني لا بد أنه كان رجلا هاما، غير أنه لم ترد عنه سوى إشارة تاريخية عابرة. ولماذا جرى اختياره ليكون بطلا دون غيره من الذين حاربوا معه ولقوا حتفهم مثله؟ كيف تطورت القصة؟ وفي أية صورة؟

تعتبر قصيدة رولان أقدم الملاحم المدونة بالفرنسية القديمة والمعروفة بملاحم المآثر، فهي قصيدة قصيرة لا تزيد على ٤ آلاف بيت. جرى فيها نعت شرلمان بعدد من الصفات الأسطورية المرتبطة بمكانته على أنه إمبراطور. فلما أحاط المنصب الإمبراطوري من قداسة، انتقلت إلى شرلمان من قسطنطين وجستنيان، وجعلت الأسطورة عمره مديداً لا حداً له. وما اتصف به من لحية في بياض الثلج، وقوة لم تنل منها السنوات العديدة، إنما ترمزان إلى القداسة والأبوة. فهو يمثل الإله، ومنشئ العلم المسيحي وتحدث الملائكة مع شرلمان...

ومن تحت هذه الشخصية التي تعبر في ضخامتها أكبر من الحياة ذاتها، نلاحظ شيئاً آخر. نلاحظ صورة السلطان المثالي، الذي اشتهر بالعدالة والحكمة والعظمة والإخلاص. وبذل الشاعر جهده في أن يصف لنا في شرلمان فكرة المصور الوسطى عن الملك، بأنه لم يكن عجولاً في الرد، ولم يبادر بالقيام بعمل إلا بناء على نصيحة مجلسه، وله الحق في الاعتراض على كل اقتراح قبل أن يُعرض للتصويت، غير أنه إذا حاز الموافقة من المجلس، تحتم تنفيذه. سواء أقر هو هذا الاقتراح أو رفضه،

ويقابل هذا بما يسلكه الأمراء الآخرون الواردة أسماؤهم في الملحمة من انفرادهم بالعمل .

ثم يصف السلوك الشخصي لشارلمان ، من حيث مكانته ، ودمايته وإقدامه ، وقوته ، وشعوره الديني المتأصل ، وصدافته ومحبة الزائدة لابن أخيه رولان وأقرانه ، وللشبان الذين يعتبرهم أبناءه ، فهو يركب ويحارب بين باورناته على أنه أعظم هؤلاء البارونات . على أن الشعراء المتأخرين ازداد نزوعهم إلى تطوير هذه الأغراض على حساب الشخصية الأساسية (البطل) ، ومن هنا حدث في فترة الحروب الصليبية أن دخلت الملحمة الأسطورية في مرحلة جديدة من التطور ، إذ ساد الاعتقاد بأن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية ، واستغل الشعراء هذه الناحية ، فأخرجوا ترجمة جديدة لحياة أول امبراطور غربي ، صوروه في هيئة محارب صليبي ، ليست حياته الأولى إلا عبارة عن حروب متصلة ضد الكفار ، وأحكموا ابتداء قصة رحلة ، قام بها شارلمان إلى بيت المقدس ، وإلى القسطنطينية ، وعمدوا إلى تشويه الأناشيد القديمة التي تشير إلى الحروب القومية ضد الفرنجة في إكيتانيا وبريتاني وسكسونيا ولومبارديا ، وأقحموا اسم المسلمين في كل موضع من هذه المواضع .

السير البار الميرني

